لماذا ماتَ المسيح؟ الجزء الأوّل

د. جيني كونستانتينو

السؤال: هلّا شرحتِ الفرق بين إيمان البروتستانت بأنّ المسيح قد ماتَ من أجل خطايانا، وإيمان الأرثوذكس بأنّه مات حُبًّا بنا؟

الجواب: إنَّ الفرق كبيرٌ بين كيفيّة فهمِ الأرثوذكس وكيفيّة فهم البروتستانت والكاثوليك لمعنى الصليب وغايته، ولكنْ يجبُ ألّا نُضخِّم الاختلاف. مثلًا، لا يُنكِرُ البروتستانت أو الكاثوليك كلاهُما أنّ الله يحبُّنا، ولا نحن نُنكر أنَّ المسيح ماتَ بسبب خطايانا. يكمن الفرق في كيفيّة تفسيرنا هذه المفاهيم، وما يترتّب عن هذه الاختلافات في حياتنا الروحيّة.

سأشرح الأمر على نحوٍ عموميّ وواسع، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ البروتستانت لا يتشاركون جميعًا المعتقدات عينها، لأنّ بعضَهم قد يميلُ إلى التطرُّف في الرأي نحو جانبٍ أو نحو نقيضه. يقبل الكاثوليك أيضًا الكثير من مفاهيم البروتستانت العامّة عن الصليب والخلاص، لكنّهم يقبلون أيضًا معاني إضافيّةً أكثر عُمقًا ويُقدِّرونها.

المصدر الرئيس لمفهوم الصليب في الغرب

إنَّ نظرة مسيحيِّي الغرب إلى الصليب متأثّرةٌ على نحوٍ أساسيّ بكتابات أنسِلم (Anselm)، الذي كان رئيسَ أساقفة كانتربري نحو العام 1100م، وهو أحد قدّيسي الكنيسة الكاثوليكيّة. كتبَ كتابًا لاهوتيًّا شهيرًا جدًّا عنوانه: "Cur Deus Homo" والذي يعني "لماذا صار الله إنسانًا؟". بدأ أنسِلم بالسؤال: "ما هي الخطيئة؟"، وتوصَّلَ إلى الاستنتاج أنّ الخطيئة هي جريمةٌ ضدَّ الله، وأنّنا نستحقُّ بعدلٍ أن نُعاقَبَ عليها، وأنّ الخطيئة هي أيضًا دَينٌ نَدينُ به لله. ولكنّ المشكلة هي أنَّه ما من إنسانٍ كان يمكنه أن يُعاقَبَ بالقدر الذي نستحقُّه. وإذا كانت الخطيئة دَينًا لله، فلا يوجد إنسانٌ يسعهُ تسديد الدَّين لأنّ خطيئتنا كبيرةٌ جدًّا، وحده الله يمكنه أن يدفع الدَّين. غير أنّ الله ليس المدين، بل الدائن. ليس الله مَن ارتكب تعدّي الخطيئة، لذا لا ينبغي له أن يتألَّم

بسببها. إذًا، [بحسب أنسِلم] مع أنَّ البشر هم المدينون بهذا الدَّين، أو هم المسؤولون عن "جرائمهم"، لا يسعهُم أن يدفعوا العقوبة؛ وحده الله هو القادر على ذلك.

فسَّرَ أنسِلم أيضًا قائلًا إنَّ الله، مع أنَّه يرغب في مسامحتنا، لا يستطيع أن يغفر الخطيئة ببساطةٍ، لأنَّه عادلٌ والغفران سيُخالف ناموسه. وعليه، استنتج أنسِلم أنَّ ابنَ الله، الذي هو أيضًا إلهٌ تامٌّ، صار إنسانًا لكي يدفعَ الدَّينَ الذي كان علينا لله أو يتكبّد العقوبة التي كنّا نستحقُّها، وذلك بالتألُّم والموت على الصليب.

الكفّارة البديلة أو الاستبدال العقابيّ

تُدعى هذه النظريّة "الكفّارة البديلة" لأنَّ يسوع الذي كان بلا خطيئةٍ حلَّ بديلًا عنّا ليُكفّر عن خطايانا، بمعنى سَداد الالتزام القانونيّ، وهذا هو معنى الفعل "يُكفِّر" (atone) الذي ليس كتابيًّا بل مستعارٌ من نظام العدلِ الإنكليزيّ. تُدعى النظريّة "الاستبدال العقابيّ" لأنّ المسيح حلَّ بديلًا عنّا عندما كابدَ العقوبة التي كنّا نستحقُّها. وبما أنَّ استنتاج أنسِلم بدا "منطقيًّا"، تبنَّت الكنيسة الكاثوليكيّة هذا التفسير على نطاقٍ واسعٍ في العصور الوسطى. ثمّ بعد نحو 400 عام، بدأ الإصلاح البروتستانتيّ، لكنَّ هذه النظرة كانت قد ترسَّخت بقوَّةٍ في فِكر الغرب اللاتينيّ إلى درجةٍ أنَّ البروتستانت لم يُخيَّلْ إليهم البتّة أنَّ هذه النظرة إلى الصليب قد لا تكون صحيحةً أو أنَّه قد يوجدُ فهمٌ أفضل لسبب موتِ المسيح. كانت لدى الكنيسة اللاتينيّة بالفعل نزعةٌ قانونيّةٌ قويّةٌ في منظوراتها اللّاهوتيّة، لذا جاء هذا التفسير متوافقًا تمامًا مع أفكارها. وبمرور الوقت، ترسّخت فكرة أنّ الصليب هو "دفعُ ثمن" الخطيئة حتّى إنّه لم يعُدْ ينافسه مفهومٌ آخر في المسيحيّة الغربيّة.

بالغَ الكثير من المسيحيّين في هذه النظريّة العامّة، فباتوا يقولون إنّ الله الآب "اشترطَ" موت الابن أو "طالبَ به". وقال بعضُ المبشّرين والمعلّمين إنّ الله الآب صبَّ جامَ غضبه على الابن الذي تألّم من أجل كلّ الخطايا التي اقترفتها البشريّة. وقال البعض إنّ الآبَ تخلّى عن الابن على الصليب، أو أعرضَ عنه، أو مفاهيم أخرى مشابهة. يجد الكثير من البروتستانت هذه النظريّة مُلهِمةً جدًّا بسبب ما فعلَهُ المسيح، أو يتمسّكون بهذا التعليم بشدّةٍ، لا بوصفه تفسيرًا منطقيًّا فحسب، بل بوصفه أمرًا ضروريًّا تمامًا، فلَولا ذلك لما جرتْ مغفرةُ الخطايا. من ناحيةٍ أخرى، يجدُ بعض الناس فكرة طلَبِ الله موتَ ابنه بوساطة التعذيب أمرًا مروِّعًا، بسبب الصورة التي تُقدِّمها هذه الفكرة عن الله الآب.

ما الإشكاليّة في فكرة الكفّارة البديلة؟

إنّه تفسيرٌ غير صحيحٍ وغريبٌ تمامًا عن الفِكر الأرثوذكسيّ وفِكر الكنيسة الأولى. لماذا؟

أوّلًا، هذه النظرة تجعل اللهَ "المشكلة". في الواقع، نحن المشكلة لأنّنا قد خطِئنا، في حين أنَّ هذه النظرة تقول بوجود خطْبٍ في الله: يجب تهدئة الله أو إرضاؤه، لذا هو المشكلة التي يجب حلُّها، أو هو مَن يخلق الوضع الذي يحتاج إلى حلّ.

ثانيًا، هذا المفهوم عن الله الآب تجديفيٌّ، وهو إهانةٌ للآب. يصِفُ الله بطريقةٍ بشريّة، وهو غير صحيحٍ لاهوتيًّا. لقد شرحتُ سابقًا أنّ الله "عديم الهوى" (باليونانية: ἀπαθής)، أي أنّه غير متغيّر. لا يتغيّر من حالة هدوءٍ إلى حالة غضب. الله لا يغضبُ أهوائيًّا.

ثالثًا، يُقدّم هذا المفهوم خلاصَنا بوصفه صفقةً ومسألةً تتطلّبُ وفاءً قانونيًّا بالتزامٍ ما. غير أنّ علاقتنا بالله ليست "قانونيّة" بل هي علاقةٌ عائليّة، فقد دعانا المسيحُ أولادَ الله، أبناءَ الله وبناتِه. الله أبونا لا دائنُنا.

رابعًا، يضَعُ هذا المفهوم اللهَ في حالة "إلزام". تقول النظريّة إنّ موت الابن مطلوبٌ لأنّ الله "لا يستطيع" أن يغفر من دون تحقيق مفهومٍ مُعيَّنٍ "للعدالة". لكن، إذا كان الله لا يستطيع أن يغفر ببساطة، وهو ما ينتظر منّا أيضًا أن نفعله، فهو لا يملك إرادةً حرَّة، ولا يمكنه أن يفعل ما يشاء.

خامسًا، إنّ النظرة إلى الصليب بوصفه دفعًا لدَينٍ في المقام الأوّل يُفقِرُ معنى الصليب الذي هو مجدُ المسيح وغلبته على الخطيئة والموت.

سادسًا، لا يفسّر هذا المفهوم الغرضَ من القيامة، أو هو يجعل القيامة ثانويّةً أو أقلَّ أهميّةً لخلاصنا.

الكفّارة البديلة ليست كتابيّة

سابقًا، ليس هذا المفهوم كتابيًّا ولا هو تعليم الكنيسة القديمة. تأمّلوا في مثل الابن الضالّ: هل طالبَ الأبُ الابنَ بدفع المال الذي أهدره أو بتعويضه؟ هل قَبِلَ الأبُ الابنَ لكنْ قال له إنّه يجب أن يُعاقَب؟ ما هو أهمُّ قولٍ في العهد الجديد عن سبب تجسُّد الابن؟ "لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يوحنّا ٣: ١٦).

لا ينبغي تقييدُ هذا القول البسيط المباشِر بتفسيراتٍ لأحدهم من القرون الوسطى، عبر إضافة عبارة: "لأنّه قَبِلَ العقاب الذي كنّا نستحقُّه ودفَعَ الدَّين الذي كان علينا". لا يُصوِّر العهدُ الجديد الخلاصَ على أنَّه "صفقة"، لكنّ البروتستانت والكاثوليك يُقحِمون هذا التصوُّر مرارًا وتكرارًا في الآيات الكتابيَّة، وهُم يفترضون وجوده فيها لأنَّه هو اللاهوت الذي تبنّاه الغرب على أنّه "تفسيرٌ" للصليب منذ أكثر من 900 عام. يصعبُ عليهم جدًّا تصوُّر الصليب بأيّة طريقةٍ أخرى، أو قراءة آيات العهد الجديد المتعلّقة بالصليب من دون تلك النظرة.

مشكلة استخدام الاستدلال العقليّ البشريّ في التفسيرات اللاهوتيّة

تُعدُّ نظريّة الكفّارة البديلة مثالًا على أسبابِ عدم اعتماد الكنيسة الأرثوذكسيّة على التحليل البشريّ في الإجابات اللاهوتيّة. فكلُّ نتيجةٍ يجري التوصُّل إليها عن طريق التحليل البشريّ تعتمد على المسلَّمات التي ينطلق منها المرء، كما في هذه الحالة. تقولُ النظريّة إنّ المسيح ماتَ لكي يدفع العقاب أو الدَّين الذي كنّا نَدينُ به لله بسبب الخطيئة. لكن ماذا لو لم تكن الخطيئة جريمةً "نستحقُّ" عقابًا عليها؟ ماذا لو لم تكن الخطيئة "دَينًا" "نَدينُ" به لله ومستحيلًا علينا سَداده؟ عندها سيكون استنتاجُ سببِ موت المسيح مختلفًا تمامًا.

على النقيض من ذلك، لطالما حافظت الأرثوذكسيّة على التقليد الرسوليّ الذي اعتبرَ الخطيئةَ في الأساس مرضًا روحيًّا يُلحِق ضررًا بعلاقتنا بالله. فالخطيئة تجعلنا نمرض ونبتعد عن الله. نأتي إلى الكنيسة من أجل الشفاءِ الروحيّ واستعادة علاقتنا بالله وتقويتِها. إنّ الصورة التي تستخدمُها الكنيسة الأرثوذكسيّة إجابةً عن مسألة الخطيئة هي صورةٌ طبّيّة، ولهذا نَصِفُ الربَّ تكرارًا بأنَّه "طبيبُ نفوسِنا وأجسادنا"، وهو أحدُ أقدم ألقاب المسيح. هذه هي الصورة التي كانت لدى الكنيسة الأولى عن المسيح بسبب الخبرة معه بوصفه "شافيًا".

هل طرحَ أحدٌ هذا السؤال أو أجاب عنه قبل أنسِلم من كانتربري؟

لم يكن أنسِلم أوّلَ مَن طرحَ السؤال: "لماذا صارَ الله إنسانًا؟"، فقد طرحه القدّيس أثناسيوس وأجاب عنه في منتصف القرن الرابع بعبارةٍ شهيرة: "صارَ الله إنسانًا لكي نصير نحن آلهة". وآخرون قَبْله، مثل القدّيسَين يوستينوس الشهيد وإيريناوس، قالوا الأمرَ عينه. كانوا جميعُهم يعبّرون عن التقليد الرسوليّ. وكانت هذه الفكرةَ

القديمةَ عن الخلاص، وهي التألُّه، أي أن نصبح مشابهين لله. لم يقصد القدّيس أثناسيوس أنَّنا نصبح آلهةً حَرفيًّا، بل أنّنا نصبح مثل الله. عندما صار المسيح إنسانًا، جعلَ التألُّهَ والتقدُّسَ ممكنَين لنا، وذلك باتْحادِه طبيعتَه الإلهيّة بطبيعتنا البشريّة. إنّ أهمَّ حدثٍ لخلاصنا هو التجسُّد الذي يجعل تقديسَنا وخلاصَنا ممكنَين، لأنّ الخلاصَ هو أن نصبح قدّيسين، ما يُتيح لنا أن نحيا مع الله إلى الأبد، بدلًا من أن يدفع يسوعُ الثمنَ عنّا لندخل الملكوت من دون أن نتبدَّلَ نحن.

ربَّما وصفَ آباءُ الكنيسة أحيانًا الخطيئة في عِظاتهم بأنّها جريمةٌ أو دَين، ولكنْ فقط كصورةٍ من بين صُوَرٍ عديدة. ولم يقدِّم الآباءُ موتَ يسوع من أجلنا بطريقةٍ قانونيّةٍ أو بوصفه صفقةً تجاريّة، وبالتأكيد، لم يُقدِّموه على أنّه أمرٌ طالَبَ به الله أو اشترطَهُ لتحقيق مفاهيم العدالة الإلهيّة. بدلًا من ذلك، جرى الكلام على الخطيئة في الكنيسة القديمة بوصفها مرضًا في المقام الأوّل، ولا يزال الأمر كذلك في الكنيسة الأرثوذكسيّة اليوم.

ردّ القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ

في أواخر القرن الرابع، نفى غريغوريوس اللاهوتيّ نفيًا قاطعًا احتمال وجوب "الدفع" للآب، مُعتمِدًا جزئيًّا على حقيقة أنّ الله لم يطلب موتَ إسحق ابن إبراهيم، وقالَ إنّ البشريّة دُعيَت إلى أن تتقدّس.

"... على أيِّ أساسٍ كان يمكن أن يَسُرَّ دمُ الابنِ الوحيد الآبَ الذي لم يقبل إسحق عندما قدّمه أبوه، بل بدّلَ الذبيحة، مُعطيًا كبشًا مكان الذبيحة الناطقة؟ من الواضح أنّ الآب يقبله، مع أنّه لم يطلب هذا ولا كان بحاجةٍ إليه، وذلك من أجل التدبير الإلهيّ ولكي يتقدّس الإنسان بناسوت الله، ولكي يحرّرنا اللهُ بنفسه ويقهرَ الطاغية بالقوّة" (العظة 45، 22).

لا يتّفق الكاثوليك والبروتستانت معنا، ويسألون:

إذًا، ما الذي يعنيه الأرثوذكس عندما يتّفقون مع فكرة أنّ المسيح ماتَ من أجل خطايانا؟ ماذا عن شرط سفك الدَّم للتكفير عن الخطايا؟ لماذا موتُ المسيح هو ذبيحة؟ لماذا يُدعى موتُ المسيح فديةً أو خلاصًا؟

[سنجيب عن هذه التساؤلات في الجزء الثاني]

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Dr. Jeannie Constantinou's Newsletter, "Why Did Christ Die? Part 1," March 2026.